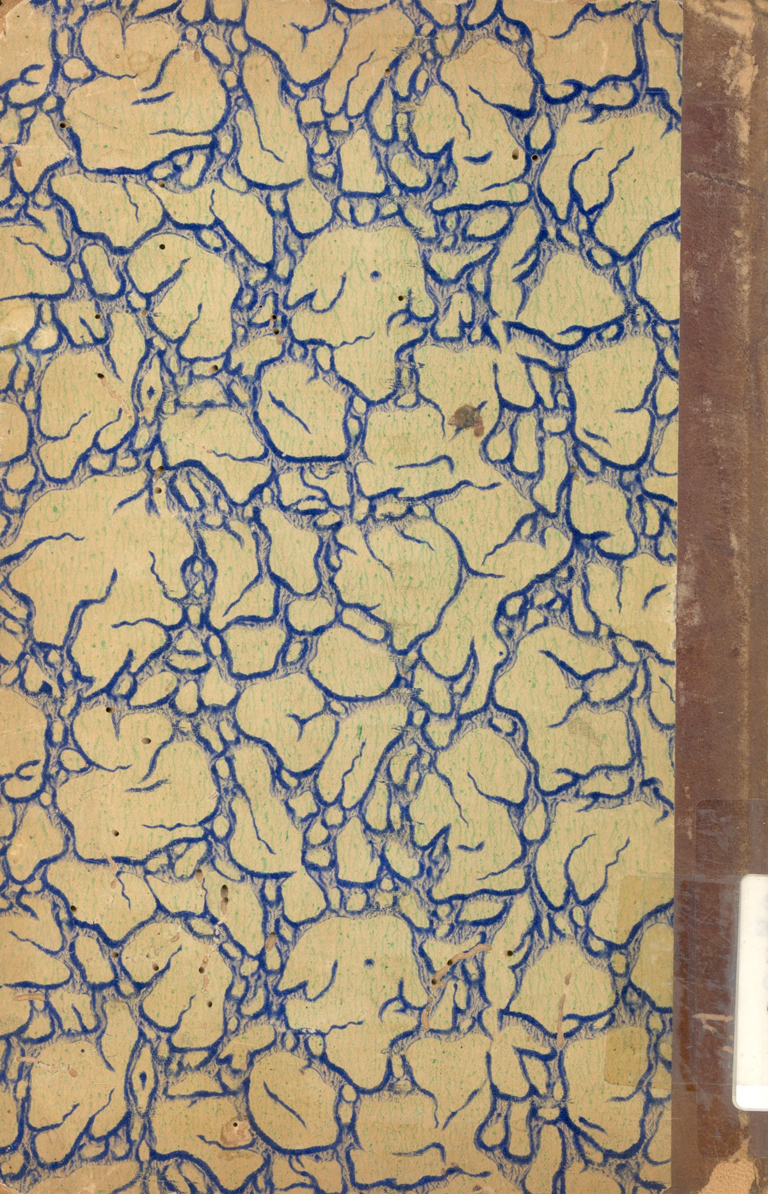


اهداءات ٢٠٠٢

اسرة د/ عبد الرحمن بدوى
جمعية د /عبد الرحمن بدوى للابداع الثقافى
القاهرة



كتاب

الحكمة في مخلوقات الله عز وجل

تصنيف الشيخ الامام العالم العلامة الزاهد العارف
حجة الاسلام ناصر الشريعة شرف الامة كهف الملة
امام الحقيقة والطريقة زين الدين أبي
حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس
الله تعالى روحه ونور ضريحه
وحشرنا في زمرته
آمين

اعتنى بتصحيحه مصطفى القباني الدمشقي

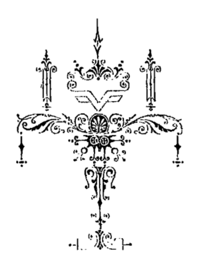
(طبع على نفقته ونفقة محمد امين الخانجي)

الطبعة الاولى
سنة ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م

مطبعة النيل بشارع باب الخلق بجوار الكتبخانه بمصر

فهرست

كتاب الحكمة في مخلوقات الله عز وجل



مقدمه

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وكافة الانبياء والمرسلين . وبعد فلما كانت الكتب سبب السعادة والذريعة لاقتناء المنافع والافادة . اذهي العامل لسعادة الدارين . وفيصل الحقيقة بين الزين والشين . والصدق والمين وبها يحفظ العمران . ويعبد الرحمن . ويسعد الانسان . ويتفكر اليقظان . وتقام الشرائع . وتحرز الصنائع . وتؤخذ العبر . ويسمو البشر . وتتسع العقول . وتحرز الاصول والنقول . وأهمها فائدة وأكثرها لزوماً مادل على وحدانية الصانع وسر حكمته في اختلاف مخلوقاته والطبائع . اذ بذلك يرسخ اليقين . فيفوز صاحبه بالسعادة الابدية في أعلا عليين . وكان عقد ذلك الموضوع النفيس . كتاب الحكمة في مخلوقات الله تأليف حجة الاسلام الامام الاوحد زين الدين أبي حامد الغزالي طاب ثراه . وكنت ممن شغف بمؤلفاته وعقد النية على نشر مالم ينشر منها . وقد وفقت بحمد الله لنشر بعضها كما شغفت بنشر هذا الكتاب لماله من الشهرة بين مؤلفاته . واحتياج الناس لاقتباس فرائده والتفكر في بديع آياته وسمو ادراكاته . ولكن من الاسف فقد كغيره من المشرق فأضحى كالعنقاء اسما بلا عين فأخذت بالبحث عنه في دفاتر مكاتب الاستانة العليه والمكاتب السوريه والمكتبة الخديويه فلم أقف له على أثر الا بدفتر مكتبة برلين فصار لدي كالسوط من وراء حجاب . بل كالظل في المرآة لما في الحصول عليه من كثرة المصاريف وشدة المشقة وبعد الديار ولكن لم تزل أمنيتي تحدثني بالفوز بنشره . وأحياء رسمه وذكره . حتى قيض الله لي محب العلم وناشر الويته . وعاضد أهله

وكوكب أنديته . المفضال الشهير أحمد زكي بك سكرتير ثاني مجلس النظار
وذلك عند ذهابه للمؤتمر الشرقي المنعقد في هامبورج من أعمال المانيا
سنة ١٩٠٢ م عندما كان نائباً به عن الحكومة المصرية فذاكرته به فوعدني
حفظه الله وأنجز وكلف بنسخه حضرة الفاضل النبيه الشيخ حامد والى أحد
متخرجى دار العلوم المصرية ومعلم اللغة العربيه في مدينة برلين فبذل حفظه
الله غاية جهده بتصحيحه ومقابلته على النسخة الموجودة لديه وقد ظفرت
في بعض وريقات من الكتاب المذكور فجاء بحمد الله بعد الجهد على غاية
ما يرام . من الاعتناء بالتصحيح وحسن الطبع والنظام . راجيا من الله التوفيق
وحسن الثواب . انه ولي فهو حسبي ونعم الوكيل مصطفى ابن المرحوم
السيد محمد القباني
الدمشقي



وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين ، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين ، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين ، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه ، وتحققوا أن لا اله الا هو فوحدوه ، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه ، فهو القيم بالقسط في جميع الاحوال ، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال ، فعلموا أنه الحليم القادر العليم ، كما قال في كتابه الكريم ، شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وامام المتقين وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وشرّف وكرّم الى يوم الدين ، (أما بعد) يا أخي وفقك الله توفيق العارفين ، وجمع لك خير الدنيا والدين ، انه لما كان الطريق الى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته ، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين ، وفيه تفاوت درجات المتقين ، وضعت هذا الكتاب منبها لعقول أرباب الالباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير اليها معظم آي الكتاب ، فان الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته ، والتفكر

والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته ، لقوله سبحانه (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وقوله وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) الى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها ، والمترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة ، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة ، وقد بوبته أبوابا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق وذلك حسب ماتنبهت له عقولنا فيما أشرنا اليه مع انّ لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ماخلق الله سبحانه وتعالى وما وضع من الحكم في مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه والله المسؤل أن ينفعنا به برحمته وجوده

﴿ باب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم ﴾

قال الله تعالى (أفلا ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) وقال تعالى (سبحان الله الذي خلق سبع سموات الآية) اعلم رحمك الله انك اذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعدّ فيه جميع ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منصوبة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر وكل شيء من ذلك معدّ مهيأ لشأنه والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات مصروفة في مصالحه فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشدّ الالوان موافقة للابصار وتقوية لها ولو كانت اشعة أوأنوارا لاضرت الناظر اليها فأن النظر الى الخضرة والزرقة موافق للابصار وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة لا سيما اذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر اليه

به راحة وانشراحاً لكن أذا داوم الناظر اليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح بخلاف النظر الى السماء وزينتها فأن الناظر اليها من الملوك فمن دونهم اذا ضجروا من الاسباب المضجرة لهم يلجؤن الى ما يشرحهم من النظر الى السماء وسعة الفضاء وقد قالت الحكماء يحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء وفيها انها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فتهتدي بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرّة(١) ولا مقبلة صورة نور وقيل انها أنجم صغار متكاثفة مجتمعة يهتدي بها على السير من ضلّ ويحتر في أي جهة كانت فيقصدها وقيل انها المشار اليها في قوله تعالى (والسماء ذات الحبك) قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية تدل على سعة علم باريها وأمور ترتيبها كل تدل على ارادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد. وقيل في النظر الى السماء عشر فوائد تنقص الهم وتقلل الوسواس وتزيل وهم الخوف وتذكر بالله وتنشر في القلب التعظيم لله وتزيل الفكر الردية وتنفع المرض السوداء وتسلي المشتاق وتؤنس المحبين وهي قبلة دعاء الداعين

﴿ باب في حكمة الشمس ﴾

قال الله سبحانه (وجعل الشمس سراجا) اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لا يستكمل علمها الا الله وحده فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار في جميع اقاليم الارض ولولا ذلك لبطل امر الدين أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون من أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة

(١) هكذا الاصل .

النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالابصار ولم تظهر الألوان وتأمل غروبها وغيبتها عن من طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ولولاه لم يكن للخلق هدو ولا قرار مع شدة حاجتهم الى الهدو وراحة ابدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتنفيذ الغذا ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في ابدانهم فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ماهدوا ولا قروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به ثم كانت الارض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت في النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتاً ويغيب وقتاً ليهتدوا ويقروا وهي في حرها بمنزلة يطبخ بها اهل الدار حتى اذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم وهو يحتاج اليها فينتفع حتى اذا قضى حاجته سلمها لآخرين فهي ابداً منصرفة في منافع أهل الارض بتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه والى هذه القضية الاشارة بقوله (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة الآية) ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم امر النبات والحيوان ثم انظر الى مسيرها في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخر لها بتقدير خالقها فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً والنهار معاشاً وانظر الى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص وانظر الى امالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء فاذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء واذ استوت وسط السماء اشتد القيظ واذا

كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك امر النبات والحيوان باقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وأما ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد ابدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات باذن الله وينوّر الشجر وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل وفي الصيف يحمر الهواء فينضج الثمار ويحل فضول الابدان ويجفّ وجه الارض فتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة وكل ذلك يأتي على تدريج ويقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة الى غير ذلك مما يطول لو ذكر فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لاقامة دور السنة وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم * تأمل اشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فانها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها الاّ الى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي الى الغرب على ما استتر عنها اول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها ثم انظر الى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضر بكل ما على وجه الارض من

حيوان ونبات اما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر ماذام يجد ضوء النهار وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤل أمرها الى تلفها واما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد متداره ايضاً لكان معوقا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذي يحدث على النبات اذا كان الموضع لاتقع الشمس عليه

﴿ باب في خلقة القمر والكواكب ﴾

قال الله سبحانه وتعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا) اعلم وفقك الله ان الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدو الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة فكان لايمكن ان يعمل عملا فيه وربما احتاج الناس الى بعض أعمالهم في الليل اما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الاسباب فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما تحتاج اليه في المعونة على ذلك فجعل طلوعه في بعض الليالي وينقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل بساطهم تأكل مابه يتمتعون من الهدو والقرار فيضر ذلك بهم وجعل في الكواكب جزءا من النور يستعان به اذا لم يكن ضوء القمر وجعل في الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لاهل الارض فانظر ما الطف هذا التدبير جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة اليها وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج اليه ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ثم في النجوم مآرب اخرى فان فيها دلائل وعلامات على اوقات كثيرة لعمل من الاعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء بها في السفر في البر والبحر واشياء مما تحدث من الانواء والحر والبرد وبها يهتدي السيارون

فى ظلمة الليل ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) مع ما فى ترددها فى السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة وفى تصريف القمر خاصة فى استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لاصلاح العالم ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب فى كل يوم وليلة دوراناً سريعاً وسيرها معلوم مشاهد فانا نشاهدها طالعة وغاربة ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة فى اربعة وعشرين ساعة فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة مسيرها فى فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتها كالذي يحدث أحياناً من البروق اذا توالت فى الجو فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها فى البعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهي مقدرة فى جميع الاحوال على قدر الحاجة وانظر فى هذه التي تظهر فى بعض السنة وتحتجب فى بعضها مثل الثريا والجوزاء والشعرا فانها لو كانت كلها تظهر فى وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان فى طلوع بعضها فى وقت دون الآخر مايدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لاتغيب كضرب من المصلحة فانها بمنزلة الاعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة فى البر والبحر فانها لاتغيب ولا تتوارى . ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج كما يستدل على اشياء تحدث فى العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلها ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لانه انما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها فى البروج الدانية

كما يعرف سير السائر على الارض بالمنازل التي يجتاز عليها فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم بهذا دورانا دائما في الفصول الاربعة من السنة لصلاح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم ومن عظيم الحكمة خلق الافلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير في هذا الامر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة في اصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير امراً في الارض اذ قوام الارض مرتبط بالسماء فالامر في جميع ذلك ماض على قدرة الباري سبحانه لا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصلاح العالم فسبحان العليم القدير

﴿ باب في حكمة خلق الارض ﴾

قال تعالى (والارض فرشناها فنعم الماهدون) ثم انظر كيف جعل الله الارض مهاداً ليستقر عليها الحيوان فانه لا بد له من مستقر ولا غنا له عن قوت فجميع الارض محل للنبات لقوته ومسكن يكنه من الحر والبرد ومدفن يدفن فيه ما تؤذي رائحته والجيف والاقذار من اجسام بني آدم وغيرها كما قال سبحانه (الم نجعل الارض كفاتا احياء وأمواتا) قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع اصناف الحيوان والحرث والنبات وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم) فامكن الخلائق بهذا السفر فيها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والانتقال لاعمالهم فانها لو كانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات وكانوا لا يتهنون بالعيش والارض ترتج بهم من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيباً للخلق وتخويفاً لهم

لعلهم يتقوا الله وينزعوا عن الظلم والعصيان فهذا أيضاً من الحكمة البالغة ثم إن الارض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلداً لما كانت تنبت هذا النبات به حياة الحيوانات ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعل لينها لتتهيأ لهذه الاعمال ومن الحكمة فى خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال ارفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الارض فيسقيها ويرويها ثم يصير الى البحر في آخر الامر فاشبه ذلك مااذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماءعنه ولولا ذلك لبقي الماء مستبحراً على وجه الارض فيمتنع الناس من اعمالها وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك. انظر الى ما خلق الله فيها من المعادن ومايخرج منها من انواع الجواهر المختلفة في منافعها والوانها مثل الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبسنفش [1] واشياء كثيرة من هذه الاحجار الشفافة المختلفة فى الوانها وانواع اخر مما يصلح للاعمال والجمال كالحديد والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام والجبس والنفط وانواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار ثم انظر الى ارادة ايجاده من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة سهلة بخلاف مالو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذرت فان الحرث لا يستقيم الا مع رخو الارض لزراعة الاقوات والثمر والا لا يتعدى اذا صليت الماء الى الحب مع ان الحب لا يمكن دفنه الا بعد أن تلين الارض بالنداوة ويأخذ الورق وهي ضعيفة فى ابتدائها فى الارض التربة ويمكن اذ ذلك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل مايخلق من العروق يوازن

(١) هكذا الاصل ولم اجده فى اللسان

مما يخلق من الفروع ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الآبار فى المواضع المحتاجة الى ذلك اذ لو حفرت فى الجبال لصعب الامر وشق ومن الحكمة فى لينها تيسير السير للسعاة فيها اذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها) وقال تعالى (وجعل فيها سبلا فجاجا لعلهم يهتدون) ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها فى البناء وعمل اللبن وأواني الفخار وغير ذلك والمواضع التي ينبت فيها الملح والشب والبورق والكبريت أكثرها تربة رخوة وأيضاً أجناس من النبات لا يوجد الا في التراب والرمل دون الارض المحيلة ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتا يؤوى اليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله (واسلناله عين القطر) أي سهلت له الانتفاع بالنحاس واطلعناه على معدنه وقال امتنانا على عباده (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه (وانزل لكم من الانعام) أي خلق والهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون اليه في معاشهم وفي اتخاذ اوانيهم وفي ضبطها ما يحتاجون الى ضبطه وتقويته واتخاذ انواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أواني لحفظ ما يحفل فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج اليها اذ لا غنى لهم عنها وكذلك يستخرج من المعادن الاكحال مثل (الدهبخ[1] والمرفعما) والسادن والتوتيا وغير ذلك من اصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال الله تعالى (والجبال ارساها) وقال تعالى وجعل (فيها رواسي أن تميد بكم) وقال سبحانه (وأنزلنا من السماء ماء فاسكناه في الارض) فقد

---

(١) هكذا الاصل ولم اجده في اللسان

خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها الا الله فمن ذلك اني الله تعالى انزل من السماء المياه ليحي بها العباد والبلاد فلو كانت الارض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخو الارض فكانوا لا يجدون المياه الا بعد حفر وتعب ومشقة فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه ويخرج أولا فأولا فتكون منها عيون وانهار وبحار يرتوي بها العباد في أيام القيظ الى أوان نزول غيث السماء ومن الجبال ماليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها الى أن يحله حر الشمس فيكون منه انهار وسواق ينتفع بها الى اوان نزول الغيث أيضاً. ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به كما ينتفع به من الاحباب ومن منافع الجبال ما يثبت فيها من انواع الاشجار والعقاقير التي لا توجد الا فيها وما يثبت فيها من انواع الاخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وفيها الشعاري التي لا يوجد ما يعظم من الاخشاب الا فيها وكذلك العقاقير اكثرها لا يوجد الا بها وفيها وهاد ينبت مزارع للانعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لاجناح [1] النحل ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى وقد ذكر الله ذلك فقال (ويتخذون من الجبال بيوتاً آمنين) ومن فوائدها أن جعلت اعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الارض ويستدل بها المسافرون في البحار على المين والسواحل ومن فوائدها ان الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة في المياه

(١) الاجناح جمع جانح كشاهد واشهاد اراد به موائلها

وما ذلك الا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الاصلح كما اشار الى ذلك بقوله (وان من شيء الاعندنا خزائنه وماننزله الا بقدر معلوم) فسبحان العليم الحكيم

﴿ باب في حكمة البحر ﴾

قال الله تبارك وتعالى (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) الآية اعلم رحمك الله ان الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لاقطار الارض التي هي قطعة من الارض المستورة بالبحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى ان جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالاضافة الى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم فاعلم ان ما يخلق في الارض من الحيوان بالاضافة الى ماخلق في البحر كاضافة الارض الى البحر وقد شاهدت عجائب فيها ماهو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر فان فيه من الحيوان والجواهر والطيب اضعاف ماتشاهده على وجه الارض كما أن سعته اضعاف سعة الارض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما اذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف[1] وجبال أوجزائر وما من صنف من اصناف حيوان البر من انسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك الا وفي البحر امثالها واضعافها وفيه اجناس من الحيوانات لم تعهد امثالها في البر وكل منها قد دبره الباري سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ولو استقصى ذكر مايحتويه بعضه لاحتاج الى وضع مجلدات ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت الماء وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر فقال سبحانه (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وذلك في معرض الامتنان وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قال (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وآلاؤه تفضله ونعمه ثم

(١) الحشاف جمع حشفة وهي الجزيرة في البحر لا يعلوها الماء او الصخرة الرخوة في سهل من الارض لسان

انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع ثم انظر الى عجائب السفن وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الاموال وتحصيل مالهم من الاعراض وجعلها من آياته ونعمته (فقال والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل اثقالهم وينتقلون بها من اقاليم الى اقاليم لا يمكن وصولهم اليها الا بالسفن ولو راموا التوصل بغيرها لأدى الى اعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات الى ما بعد من البلاد والجهات فلما أراد الله سبحانه وتعالى ان يلطف بعباده ويهوّن ذلك عليهم خلق الاخشاب متخلخلة الاجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما يحمل به الاثقال والهم العباد اتخاذها سفنا ثم ارسل الرياح بمقادير في اوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع الى موضع آخر ثم الهم اربابها معرفة اوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحملها شراعها وانظر الى ما يسره سبحانه في خلقه الماء اذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الاجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله وفي بعضه متسع للفكر وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة أما ترى تصويري وتركيبي وصفاتي زمناً واختلاف حالي وكثرة فوائدي أيظن ذو لب سليم وعقل رصين اني تلونت بنفسي او ابدعني أحد من جنس بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار

﴿باب في حكمة خلق الماء﴾

قال الله تبارك وتعالى (وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ أفلا يؤمنون) وقال (فانشأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع

الله بل قوم يعدلون) انظر وفقك الله الى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الارض من حيوان ونبات فلو اضطر الانسان الى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا. والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة وانظر مع شدة الحاجة اليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ولو جعلها بقدر لضاق الامر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الارض ويخلخل اجزاءها فتتغذى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس الى اعالي الشجر والنبات وهو من طبعه الهبوط ولما كانت الضرورة تدعو الى شربه لاماعة الاغذية في اجواف الحيوان ليتصرف الغذاء الى موضعه جعله لشاربه في شربه لذة عند حاجته اليه وقبوله له ويجد شاربه فيه نعيما وراحة وجعل مزيلا للادران عن الابدان والاوساخ عن الثياب وغيره وبالماء يبل التراب فيصلح للبناء والاعمال وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله يابسا وبه ترق الاشربة فيسوغ شربها وبه تطفأ عاذبة[١] النار اذا وقعت فيها فلا تلتهب فيه واشرف الناس منها عليها يكرهون وبه تزول الغصة اذا اشرف صاحبها على الموت وبه يغتسل التعب الكالّ فيجد الراحة لوقته وبه تستقيم المطبوخات وجميع الاشياء التي لا تستعمل ولا تصلح الا رطبة الى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قدرها مع شدة الحاجة اليها فلو ضاقت لكدرت الحياة في الدنيا فعلم بهذا ان الله تبارك وتعالى اراد بانزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن الى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها فسبحان المتفضل العظيم

---

(١) العاذب الذي ليس بينه وبين السماء ستر.

﴿ باب الحكمة في خلق الهواء ﴾

قال الله تعالى (وارسلنا الرّياح لواقح فانزلنامن السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين) اعلم رحمك الله ان الهواء في حلقه[١] تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر وباستنشاقه تعتدل الحرارة في اجسام جميع الحيوانات لانه لهم مثل الماء لحيوان البحر فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها الي قلبها فكان هلاكها بسبب ذلك ثم انظر الي الحكمة في سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب في موضع يحتاج الى المطر فيها للزراعة فلولا لطف الباري بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في اماكنها وامتنع انتفاع الارض بها ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيهامن اقاليم الى اقاليم مما لا يخلق تلك الاشياء فيها فينتفع اهلها فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الاشياء الا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة ولعسر نقلها بالدواب الى غيرها من الاقاليم وللعباد ضرورات تدعو الى ماينقل اليهم مما ليس يخلق عندهم ومنافع يكثر تعدادها من طلب ارباح لمن يجلها ويعلم فوائدها ثم انظر الى ما في الهواء من اللطافة والحركة التى تتخلل اجزاء العالم فينقي بحركته عفن الارض فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل ثم انظر الى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال الى البساتين وتقوية اشجارها بما ينتقل اليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستتر وجوه جبال بالسافي[٢] فيمكن الزراعة فيه ومافصل الى السواحل مما ينتفع الناس بسببه وكل ذلك بحركة البحر بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في امورهم ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الارض

---

(١) الخلق الاهوية بين السماء والارض واحدها خالق والهواء الفراغ قال تعالى وافئدتهم هواء (٢) السافي التراب الذي تسفيه الريح أى تحمله

قطرات فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع انهاراً وبحاراً على وجه الارض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على احسن وجه فانظر الى أثر رحمة الله فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى (هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة ان جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً. ألا ترى الى الامطار اذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الاسفار وكثير من الحرف والصناعات ولو دام الصحو لجفت الابدان والنبات وعفن الماء الذي في العيون والاودية فأضر ذلك بالعباد وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الامراض وغلت بسببه الاسعار من الاقوات وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجدونه من الرطوبة التي يرعاها على الازهار واذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الاشياء واستقامت وهذا هو الغالب من مشيئة الله * فان قيل قد يقع من احدهما ضرر في بعض الاوقات. قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الانسان بتضاد الاشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته انه هو الغالب فيحصل لهم بتلك انزجار عن الظلم والعصيان ألا ترى من سقم جسمه احتاج الي مايلائمه من الادوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصح ما فسد منه قال الله (ولكن ينزل بقدر مايشاء انه بعباده خبير بصير)

باب في حكمة خلق النار

قال الله تعالى (أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم) اعلم وفقنا الله وإياك ان الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده ولما علم الله سبحانه وتعالى ان كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى اذا احتيج اليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج اليها فيه فهي مخزونة في الاجسام ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ماتصلحه من الطبائخ والاشربة التي اولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الامر المهم ثم انظر فيما يحتاج الناس اليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقزدير وغير ذلك فلولاها لم يكن شئ من الانتفاع من هذه الاشياء فيها يذاب النحاس فتعمل منه الاواني وغيرها وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بانها نعمة توجب الشكر فقال تعالى (اعملوا آل داود شكراً) وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف الى غير ذلك مما يطول تعداده وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك فقال (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وقال تعالى (ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار وآلات يطرق بها وآلات لقطع الجبال الصمة وآلات لنجارة الاخشاب مما يكثر تعدادها فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شئ من المنافع ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الاتربة ثم انظر الى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والتروح عند ما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها

ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد ورؤية مايؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها براً او بحراً فيجدون بوجودها انساً حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لاتملك الا بها فانظر ما اعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم ان شاؤا اخزنوها وان شاؤا ابرزوها

باب في حكمة خلق الانسان

قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) الى آخر ما وصفه سبحانه . أعلم وفقك الله تعالى ان الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض فخلق سبحانه الذكر والانثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر وعدما الحيلة في اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم الى الاجتماع وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به الى ايداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة فانتقلت بسبب الافلاج من باطن الى باطن فكانت مع انتقالها باقية على أصلها لانها ماء مهين أدنى شيء يباشرها يفسدها ويغير أصلها لانها ماء مهين ادنى شيء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها فهي ماء يختلط جميعه مستوية اجزاؤه لاتفاوت فيها بحال فخلق سبحانه منه الذكر والانثى بعد نقلها من النطفة الى العلقة الى المضغة الى العظام ثم كساها اللحم وشدها بالاعصاب والاوتار ونسجها بالعروق وخلق الاعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس وشق فيها السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصرة للاشياء

وهو أمر يعجز عن شرح سره وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الابصار . وانظر الى هيئة الاشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتتي العين مما يصل اليها مما يؤذيها من غبار وغيره فكانت الاشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقت ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصاً يضربها وخلق فى مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها وجعل طرفيها منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف مايقع في العين لاحد الجانبين وجعل الحاجبين جمالا للوجه وستراً للعينين وشعرهما يشبه الاهداب في عدم الزيادة المشوهة وجعل شعر الرأس واللحية قابلا للزيادة والنقص فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه ثم انظر الى الفم واللسان وما في ذلك من الحكم فجعل الشفتين سترا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه وهو ستر على اللثة والاسنان مفيد للجمال فلولاها لتشوهت الخلق وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الانسان وتقليب الطعام والقائه تحت الاضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه ثم جعل الاسنان أعداداً متفرقة ولم تكن عظما واحداً فان أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقى وجمع فيها بين النفع والجمال وجعل ما كان منها معكوساً زايد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذي تحته وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة اليها على الدوام وفي الاضراس كبر وتسريف لاجل الحاجة الى درس الغذاء فان المضغ هو الهضم الاول وجعلت الثنايا والانياب لتقطيع الطعام وجمالا للفم فاحكم اصولها وحدد دروسها وبيض لونها مع حمرة ما حولها متساوية الرؤس متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة لا تظهر

الا في وقت الحاجة اليها فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للانسان فجعلت ليبل بها ماىمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم فاذا فقد الاكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب وبقي منها مايبل اللهوات والحلق لتصوين الكلام ولئلا يجف فان جفافه مهلك للانسان ثم انظر الى رحمة الله ولطفه اذ جعل للاكل لذة الاكل فجعل الذوق في اللسان وغيره من اجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من المذوذ فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب اذا دعت حاجة الى تناوله وليجتنب الشيء الذى لا يوافقه ويعرف بذلك حد ماتصل الاشياء اليه في الحرارة والبرودة ثم ان الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع وحفظ الاذن بصدفة لتجمع الصوت فترده الى صماخها وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل اليها ممايؤذيها من هوام وغيره وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ولتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه فيستأسر ويتنبه صاحبها من النوم ثم انظر الى ادراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء وذلك سر لا يعلم حقيقته الا البارى سبحانه الى غير ذلك ثم انظر كيف رفع الانف في وسط الوجه فأحسن شكله وفتح منخريه وجعل فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه وليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة وليستنشق ايضاً روح الحياة غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه ثم خلق الحنجرة وهيئها لخروج الاصوات ودور اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجاري مختلفة تختلف بها الحروف ليسع طرق النطق وجعل الحنجرة مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الاصوات فلم يتشابه صوتان كما خلق بين كل صورتين اختلافا

فلم تشتبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان حتى يميز السامع بعض
الناس عن بعض بمجرد الصوت وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان
وذلك لسر التعارف فان الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما
نخلق منهما خلقا جعله مخالفا لخلق أبيه وأمه ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف
ثم انظر لخلق اليدين تهدين الى جلب المقاصد ودفع المضار وكيف عرض
الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم الاصابع بأنامل وجعل الاربعة في
جانب والابهام في جانب فيدور الابهام على الجميع فلو اجتمع الاولون
والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجهاً آخر عن وضع الاصابع
سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الاربعة وتفاوت الاربعة في
الطول وترتيبها في وصف واحد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضع صلح
بها القبض والاعطاء فان بسطها كانت طبقاً يضع عليه ما يريد وان جمعها كانت
آلة يضرب بها وان ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له وان بسطها وضم
اصابعه كانت مجرفة ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعماداً لها من
ورائها حتى لا تضعف ويلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تتناولها الانامل
لولاها وليحك بها جسمه عند الحاجة الى ذلك فانظر أقل الاشياء في جسمه
لو عدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه
وجلب ما ينتفع به في ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه في حك جسده لانه
مخلوق لذلك ولغيره فهو لا صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد
يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك ثم جعله يهتدي به الى الحك في حالة
نومه ويقظته ويقصد المواضع الى جهتها من جسده ولو احتاج الى غيره
واستعان به في حكها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة الا بعد طول وتعب ثم
انظر كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي

وزين القدمين بالاصابع وجعلها زينة وقوة على السعي وزين الاصابع أيضاً بالاظفار وقواها بها ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق مصاناً لمصلحتها وتقويتها * ولما كان الانسان محتاجاً الى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفي العظم والصق الطرف الآخر كالرباط ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقراً غايصة فيها توافق لاشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق فصار الانسان ان يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركباً من خمس وخمسين عظماً مختلفة الاشكال والصور والف بعضها الي بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى فمنها ستة تختص بالقحف وأربعة وعشرون للحي الاعلى واثنان للحي الاسفل والبقية من الاسنان بعضها عريض يصلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع ثم جعل الرقبة مركز الرأس فوركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر من اسفل الرقبة الى منتهي عظم العجز من اربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة اخرى مختلفة ووصل به من اسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة اخري ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين

وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين واصابع الرجلين فجملة عدد العظام في بدن الانسان مائتا عظم وثمانية واربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر اعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين اشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالا واحتاج الانسان الى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الانسان الى جبره فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسماية وتسعة وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط واغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها فاربعة وعشرون منها لحركة العين واجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل امر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه واما امر الاعصاب والعروق والاورد والشرايين ومنابتها وسعتها فاعجب من هذا وشرحه يطول ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس اعظم ثم انظر الى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ويستقبل الامور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل ولم يخلق مكبوبا على وجهه كعدة من الحيوانات اذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الاعمال ثم انظر من حيث الجملة الى ظاهر هذا الانسان وباطنه فتجده مصنوعا صنعة بحكمة تقضي منها العجب وقد جعل سبحانه اعضاءه تامة بالغذاء والغذاء متوال عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها بل يقف عندها ولا يزيد عليها فانها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت ابدان بني آدم وثقلت عن الحركة وعطلت عن

الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ومن اللباس كذلك ومن المساكن مثل ذلك وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه فاذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء فما ظنك بصنعته في ملكوت السموات والارض وشمسها وقمرها وكواكبها وما حكمته في اقدارها واشكالها واعدادها واوضاعها واجتماع بعضها وافتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظن ان ذرة في السموات والارض وسائر عالم الله ينفك عن حكم بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها الا الله سبحانه وتعالى المتسمع قوله سبحانه وتعالى (أأنتم أشد خلقاً ام السماء بناها) الى آخر ما نبه به وتأمل لو اجتمع الانس والجن على ان يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدروا على ذلك فانظر كيف خلقها سبحانه في الارحام وشكلها فاحسن تشكيلها وقدرها فاحسن تقديرها وصورها فاحسن تصويرها وقسم اجزاءها المتشابهة الى اجزاء مختلفة فاحكم العظام في ارجائها وحسن اشكال اعضائها ورتب عروقها واعصابها ودبر ظاهرها وباطنها وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها مدة حياتها ثم كيف رتب الاعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبا معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه وجعل طحن الاضراس اولا معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه وجعل الكبد لاحالة الغذاء الى الدم فيجذب منه الى كل عضو من الغذاء ما يناسبه فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الاعصاب وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذب الصفراء

والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية ثم يخرجه في مجرى الاحاليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه الى سائر اطراف البدن وجعل جوهرها اتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهي بمنزلة الظروف والاوعية ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به الطافا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها الا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل اليه نظره من ذلك. فمن ذلك جعله فيهما لا يحتاج الى استدعاء ولا يحتاج المولود الى ما بين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه بل ذلك في الطباع الى وقت حاجة المولود الى الاغاثة في غذائه ولولا ذلك لنفرت الامهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء فحينئذ أنبت له الاسنان عند الحاجة اليها لا قبل ذلك ولا بعده ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج الى حين كماله وبلوغه وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلا غير ذي عقل وفهم فانه لو كان ولد عاقلا فيهما لانكر الوجود عند خروجه اليه حتى يبقى حيران تائه العقل اذ رأى مالا يعرف وورد عليه مالم يره ولم يعهد مثله ثم كان يجد غضاضة ان يرى نفسه محمولا وموضوعا معصباً بالخرق ومسجا في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الرقة له والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه فتبين ان ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به. افلا يرى كيف اقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب واعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله ثم انظر فيما اذا اشتد خلق فيه طريقاً وسببا للتناسل وخلق في وجهه شعرا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غضون وجهه عند شيخوخته وان كانت انثي أبقى وجهها نقيا من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الاحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن ان يكون مهملا أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يذوي ويهلك ويجف كما يجف النبات اذا انقطع عنه الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعا وعطشا او يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الاسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبة ولا جلالة ولا وقاراً ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها الا الذي أنشأه بعد ان لم يكن شيئا مذكورا وتفضل عليه ومن عليه بكل هذه النعم فكر في شهوة الجماع الداعية لاحيائه والآلة الموصلة الى الرحم النطفة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما في ذلك من التدبير المحكم ثم فكر في جملة اعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للارب الذي اريد منها فالعينان للاهتداء بالنظر واليدان للعلاج والحذف والدفع والرجلان للسعي والمعدة لهضم الطعام والكبد للتخليص والتمييز والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات واذا تأملت كذلك مع سائر ما في الانسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب فكر في وصول الغذاء الى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه الى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ولكيلا يصل الى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فانها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقلبه باذن الله دما وتنفذه الى سائر البدن في مجار مهيأة لذلك فيصل الى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك الله رب العالمين ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول الى مغايض وأعضاء اعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا فكونها كالاوعية تحمل هذه

الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئا لا معنى له هل خلق البصر الا ليدرك الاشياء والالوان فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها هل كان في الالوان منفعة ولو لم يكن لخلق الابصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر وهل خلق السمع الا ليدرك الاصوات فلو كانت الاصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الاصوات منفعة وكذلك سائر الحواس. فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس الا بها منها الضياء والهواء فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت الى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت. فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فانه لا ينظر ان يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا يفرق بين الالوان ولا يدري بهجوم آفة او عدو ولا سبيل له ان يتعلم أكثر الصناعات وأما من عدم السمع فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الاصوات المستحسنة والالحان المطربة وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه ولا يسمع شيئا من أخبار الناس واحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي وأما من عدم العقل فهو أشر من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الاوصاف التي بها صلاح الانسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده واذا فقد شيئا اختل أمره وعظم مصابه ومن بلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق امثاله ولينال بصبره على ذلك حظا في الآخرة فانظر الى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع ثم فكر في الاعضاء التي خلقت أفرادا وأزواجا وما في ذلك من الحكمة والصواب فالرأس مما خلق فردا وان كثيرا من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شيء كان ثقلا لا يحتاج اليه فان كان قسمين فان تكلم

واحدهما بقي الآخر معطلا لا حاجة اليه وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان احدهما فضلة لا يحتاج اليها وان تكلم من احدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك واما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحاً واليدان خلقتا ازواجا ولم يكن للانسان خير في ان يكون يلم بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الامور فانك ترى من شلت احدى يديه ما يكون عنده من النقص وان يكلف بشيء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة فكر في تهيئة آلات الصوت فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والمشفتان والاسنان لاصاغة الحروف والفم الا ترى ان من سقطت اسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه ثم انظر الى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها الى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام واعانته على تسريع الطعام والشراب وما في الاسنان من المعونة ايضاً ثم هي كالسند للشفتين تمسكهما وتدعهما من داخل الفم وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله الى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الانسان ثم هما على الفم كالباب فقد تبين ان كل عضو من هذه الاعضاء ينصرف الى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن زاد افسد وإن نقص افسد فذلك تقدير العزيز العليم فكر في الدماغ اذا كشف عنه فانك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الاعراض واطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وانه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه واتقنها وحصنه بالجرائح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وان ذلك اللائق به . ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين احدهما للصوت وهو

الحلقوم الواصل الى الرئة والآخر للغذاء وهو المرى الواصل الى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام ان يصل اليه ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي الى التلف . ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها . ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط اسراحا يضبطها لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الانسان عيشته ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقي الانسان من الم الجلوس على الارض كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه اذا لم يكن بينه وبين الارض حائل . انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً ابداً كيف يصل الماء الى موضع الحلق [١] ولو كان منعظاً ابداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك بل جعله مستوراً كأنه لم تخلق له شهوة ثم انظر اليس انه من حسن التدبير في البناء ان يكون الخلاء في استر موضع في الدار فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الانسان في استر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره وذلك مخصوص بالانسان لشرفه ثم انظر في خلق الشعر والاظفار لما كانا يطولان وفي تقصيرهما مصلحة جعلا عديمي الحس حتى لا ينال الانسان الم عند التزيين بقصهما ولولا هذه الحكمة لكان بين مرين اما ان يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه او يزيل ذلك فيتألم بازالته . ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر او في الفم لنغصت الأكل والشرب او في راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الاعمال او في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها فسبحان المدبر المنعم بهذه النعم فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطاء والضرر ثم فيما جبل عليه الانسان من الاحتياج الى

(١) هكذا بالاصل

المطعم والنوم والجماع وما في ذلك من التدبير المحكم فقد جعل في طبعه محرك يقتضيه ويستحثه فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته وكذلك الشراب الذي به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه فلو كان الانسان انما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة اليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه اليه لاشتغل باسباب ضرورته فتنحل قواه ويهلك كما انه قد يحتاج الى دواء يكرهه وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أو يموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب وكذلك لو كان اقدامه على الجماع انما هو لرغبة حصول الولد لا نقطع النسل لما يعارضه من الاسباب المشغلة فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره الى حصول هذه الفوائد . انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب فصار البدن بما فيه بمنزلة دار للملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لامضاء حوائج الحشم وايراد ما لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى ان يعالج ويهيأ وآخر لاصلاح ذلك وتهيئته واصلاحه اخص مما قبل وآخر لكسح ما في الدار من الاقذار واخراجه فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه والدار هي البدن والحشم هي الاعضاء والقوم في هذه القوى الاربع التي هي النفس وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك ارأيت لو نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله وكان لا يحفظ ماله وما عليه وما اصدر وما اورد وما اعطى وما اخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من احسن اليه ولا من اساء له ولا من نفعه ممن ضره وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه ولا لعلم ولو درسه ولا ينتفع بتحريره ولا يستطيع ان يعتبر

بمن مضى فانظر الى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها فكيف جميعها واعجب
من نعمة الحفظ نعمة النسيان فلولا النسيان ما سلا الانسان عن مصيبة فكان
لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات
الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات وكان لا يمكن ان يتوقع غفلة
من ظالم ولا فترة ولا ذهولا من حاسد أو قاصد مضرة فانظر كيف جعل
الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان وجعل للانسان في كل منهما
ضروباً من المصالح ثم انظر الى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء
فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يثمر الجميل
فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى ان كثيراً من الامور الواجبة انما
تفعل لسبب الحياء من الناس فترد الامانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما
ويعف عن فعل الفواحش الى غير ذلك من أجل الحياء فانظر ما اعظم موقع
هذه النعمة في هذه الصفة وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه
البهائم فيعبر بما في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه وكذلك نعمة الكتابة
التي تفيد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين وبها تخلد في الكتب
العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات
ولولا الكتابة لانقطعت اخبار بعض الازمنة عن بعض ودرست العلوم
وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس فى أمورهم بسبب
عدمها فان قلت ان الكلام والكتابة مكتسبة للانسان وليست بأمر طبيعي
ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي الى غير ذلك وكذلك
الكلام هو شيء يصطلح عليه فلذلك اختلف * قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد
والاصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدي به ليس بفعل
الانسان ولولا ذلك لم يكن ليكتب ابدا فسبحان المنعم عليه بذلك وكذلك

لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم ابدا فسبحان المنعم عليه بذلك ثم انظر الى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به مايؤذيها وماخلق فيه من الحسد فيه يسعى في جلب ماينتفع به غير انه مأمور بالاعتدال فى هذين الامرين فان جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين بل يجب ان يقتصر فى حالة الغضب على دفع الضرر وفي الحسد على الغبطة وهي ارادة ماينفعه من غير مضرة تلحق غيره ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضا صلاحه فمن ذلك الامل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الاقوياء منافع العمارة فان الخلق أول مايخلق ضعيف فلولا انه يجد آثار قوم أحيوا وعمروا لم يكن له محل يأوي اليه ولا آلة ينتفع بها فكان الامل سببا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين وهكذا يتوارث الى يوم الدين ومنع الانسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة فانه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهن الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ولعجز الوعاظ عن ايقافه وزجره عن مايؤديه الى اتلافه فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الاعمال قبل الفوات ثم انظر الى ماينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه عن اصناف الاطعمة على اختلاف طعومها وأصناف الفواكه مع اختلاف الوانها وبهجتها واصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها الى اغراضه ويجدها في مهماته وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وازهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ماخلق فيه من

العقل والفهم فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب . ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغنى فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الاحوال فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي فانه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالا عليه وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وعبادته الى الاجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عدّ ولا يعلم منتهى حقائقها واحصاء جملتها الا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عدداً

﴿ خاتمة لهذا الباب ﴾

اعلم ان الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه فقال سبحانه (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهجة والحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته واستدلالا له على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة قال الله العظيم (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فكان نظره في نفسه وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود باريه ومدبره وخالقه ومصوره فانه ينظر في العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصاً ولا يسمع له حساً ولا يجس له مجساً ولا يشم له ريحاً ولا يدرك له صورة ولا طعماً وهو مع ذلك أمر ومطاع زيادة وراج ومفكر ومشاهد الغيوب ومتوهم للامور اتسع له ما ضاق عن الابصار ووسع له ما ضاقت عنه الاوعية يؤمن بما

غيبه حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما تحتها حتى كانه
شاهده ابين من رأي العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علما
ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكادان يميز بين الهمة بالحركة
وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما اسبق وان كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره
وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه اذلا يمكنه ان يصف نفسه بنفسه بصفة
وهيأة أكثر من الاقرار بانه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه وهو
مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع وتجرى
الامور وقد تدبرها ويتوهم العواقب ويمثلها ويدل على الامور على اختلافها فدل جهله
بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز انه مركب مصنوع مصور مدبر مقهور لانه مع حكمته
واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد ان يذكر الشيء فينساه ويريد ان ينساه فيذكره
ويريد ان يسر فيحزن ويريد ان يغفل فيذكر ويريد ان يتنبه ويتيقظ فيسهو
ويغفل دلالة على انه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبر
لا يدري كم مدا مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف اتساق حروف
كلامه ولا كم مدا مبلغ نظاره ولا كيف ركب نوره ولا كيف ادرك الاشخاص
ولا كم قدر قوته ولا كيف تركبت ارادته وهمته فاستدل بعلمه وجحده عن
حقيقة ما علم انه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق
المريد العليم عز وجل ثم انه خلق في الانسان الهوى موافقا لطباعه فان
استعمل نور العقل فيما امر به ورد مورد السلامة وفاز غدا بدار الكرامة
وان استعمله في اغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره
مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب هو الآلة
له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله
واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الاخلاق الموجودة في كل امة

زمان واستحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد . فانظر ماشرف هذا الانسان ان خلق فيه مايفيده هذه المعارف فان الاواني تشرف بشرف مايوضع فيها ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك ولما سبق في علم الباري سبحانه وارادته وحكمة بمصير الخلق الى دار غير هذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على احكام تلك الدار بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم اياه بنور الرسالة اليهم فارسل الانبياء صلوات الله عليهم مبشرين لاهل طاعته ومنذرين لاهل معصيته فدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه فكانت انوار ما جاء به بالوحي من عند الله بالنسبة الى نور العقل كالشمس بالاضافة الى نور النجم فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بادراكه عقولهم وأرشدهم الى مصالح اخراهم التي لا سبيل للعباد ان يعرفوها الا بواسطتهم وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاؤا به ما أوجب الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم فتمت بذلك نعمة الله على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم . فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منه هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون هذه الزيادات الفاضلة ثم تضافرت انوار الشرائع التي هي كالشمس وأنوار العقول التي هي كالنجم فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى وشقاوة من كذب ولم يرد الا الحياة الدنيا. ثم ان الله تبارك وتعالى من على الانسان بان خصه برؤيا يراها في منامه أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منفرة له لما يتوقعه بين يديه كل ذلك مواهب وكرامات من جود الله سبحانه وجعل الله استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سببا لصدقها في غالب الامر ليتحفظ او يقدم على الامور أو يحجم عنها وهي الامور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها واطلع

علي بعض الامور منها من شاء

﴿ باب في حكمة خلق الطير ﴾

قال الله سبحانه وتعالى ألم تروا الى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن الا الله) اعلم رحمك الله ان الله تعالى خلق الطير واحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه مايثقله وخلق فيه مايحتاج اليه وما فيه قوامه وصرف غذاه فقسم لكل عضو منه مايناسبه فان كان رخوا أو يابساً او بين ذلك انصرف الى كل عضو من غذائه ماهو لائق به فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله واعانة له في ارتفاعه عن الارض وقت طيرانه واسعة الاسفل ليثبت في موطن على الارض وهي خف فيه أو بعض اصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لانه في رعيه وطلب قوته لايستغنى عن مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه فاغناه سبحانه عن الريش في موضع لايليق به حتى يكون مخلصاً للطيران وما خلق من الطير ذا ارجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها اذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحائر حتى ينكب على صدره وكثير مايعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ولو طال عنقه وقصرت رجلاه اثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره ودائره ملفوفاً مربياً على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة وكذلك رؤس اجنحته مدورة اعانة له علي الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يغتذي به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواثر وما قوته اللحم ومنه عرض مشرشر

جوانبه تنطبق على مايلتقطه انطباقاً محكماً ومنه معتدل اللقط وآكل الحضر ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ماهي في العظم لكثرة الحاجة الى استعماله وهو مقام الاسنان في غير الطير من الحيوان وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصبا منسوبا فيما يناسبه من الجلد الصلب في الاجنحة لاجل كثرة الطيران ولان حركة الطيران قوية فهو محتاج الى الاتقان لاجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر او برد ومعونة متخللة الهواء للطيران وخص الاجنحة بأقوى الريش وأنبته واتقنه لكثرة دعاء الحاجة اليه وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالا له وثبت اصل جميعه لانه جبيرته وجمله وجعل في ريشه من الحكمة ان البلل لايفسده والادران لاتوسخه فان اصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود الى خفته وجعل له منفذا واحدا للولادة وخروج فضلاته لاجل خفته وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولاه لما مالت به الاجنحة في حال الطيران يمينا وشمالا فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته ولما كان طعامه يبتلعه بلعا بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام مايقطع بالمدية وصار يزدرد ما يأكله صحيحا واعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحنا يستغني به عن المضغ وثقل الاسنان واعتبر ذلك بحب العنب وغيره فانه يخرج من بطون الحيوان صحيحا وينسحق في اجواف الطير ثم انه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران فانه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه مما يليق به من الحكمة انظر الى من أنزله والهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة من الهمه ان يلتقط الحب فاذا ماع في باطنه غذى به

افراخه وهذا نوع من الطير ثم انظر هذا كيف احتمل هذه المشقة وليست له روية ولا فكر في عاقبة ولا له امل يأمله في أفراخه كما يأمل الانسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر فهل هذا قطعا الا الهام الهي من فعل الله سبحانه انظر كيف الهم معرفة حمل الانثى منه بالبيض فالهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظا في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه انظر الى الحمام كيف الهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه وان اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ثم انظر الهامه بما يزق به فرخه فانه اولا يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول مايوضع فيها ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ثم اذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى يدرجه يفعل مراراً حتى يولى حوصلته فانه لو ارسله اليه حبا صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده فانظر أن كان هذا من فعل الطير وحكمته ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده الى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ومن الطير من ما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى وانتعلم ان قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء وذلك لان الدجاج ما فيهم اهلية الزق بل جعلت فراخهم يلتقطون غذاهم عند خروجهم من البيضة ثم انظر في الحمام الذكر والانثى كيف يتداولان على التسخين خوف ان يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علما بان عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم ثم انظر الى خلق البيضة وما فيها من الحكم لله ففيها المخ الاصفر الخاثر والماء الابيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده وبعضه يغتذي به الى ان تنشق عنه ومافي ذلك من التدبير من المحكم العجيب وكيف جعل معه غذاه في بيضة مغلقة تلتقي به الى حين كماله فيها وخروجه منها ثم انظر في

حوصلة الطائر وما في حلقها من التدبير فان مسلك طعامه الى القانصة ضيق
لا ينفذ اليه الا قليلا قليلا فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الاولى الى القانصة
لطال الامر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه فصار ما يحتكره
احتراساً لشدة حذره فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليودع فيها
ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذه الى القانصة على مهل وفيها حكمة أخرى
فأن الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ثم تأمل
ريش الطائر فانك تجده منسوجا نسج الثوب من سلوك رقاق وفيها من
اليبس ما يمسك ماحولها ومن اللين مالا ينكسر معه وهي خاوية قد الف
بعضها الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط والشعر الى الشعر ثم تجده اذا فتحته
أعني النسيج ينفتح قليلا ولا ينشق ليدخله الريح فتثقله عن طيرانه وتجد في
وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتاً قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه
بصلابته فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء
وهي مع صلابته مجوفة ليخف عليه طيرانه أنظر الى الطائر الطويل الساقين
والحكمة في طولهما انه يرعى أكثر رعيه في ضحضاح كأنه فوقه مراقب
يتأمل ما يدب في الماء فاذا رأى شيئاً من حاجة خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله
فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو الى الصيد يصل بطنه الى الماء فيهزه
فيذعر منه الصيد فيبعد عنه. أنظر الى العصافير وغيرها فانها تطلب رزقها في
طول نهارها فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا محله وهو امر جار على سنة
الله في خلقه فان صلاحهم في السعي في طلب الرزق فان الطير لو وجده
ميسرا أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده
أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فانه يأكل السمك فاذا امتلأ منه
وأزعجه مزعج تقيأه حتى يخف للطيران وكذلك الناس أيضا لو وجدوه بلا

سعي لتفرغوا افراغا يوقعهم في غاية الفساد أنظر الى هذه الاصناف من الطير التي لاتخرج الا ليلا مثل البوم والهام والخفاش فأن عيشها يتيسر فى الجو وكالبعوض والفراش وشبهه فانها منبثة في هذا الجو فجعل عيشه في موضع أقرب اليه من الارض ولعل نوره لا يعينه ان يلتقط من الارض بدليل انه لا يظهر في نور الشمس الا مختفياً فالهم ان يعيش فى الجو من الفراش وغيره أنظر الى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له مايقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل مافى البهائم الارضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيران فاظهر سبحانه فيه ان قدرته على الطيران لاتقتصر على ماخلق له الريش ولا تنحصر فى نوع واحد لانه خلق هذا النوع وخلق من السمك جنسا يطير على وجه البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء فسبحان القاضي العليم أنظر الى الذكر والانثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة فاذا احتاج أحدهما الى قوته ناب الآخر الى آخر وقت الحضانة ثم ألهمهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض اذا خرجا لنيل القوت حتى انهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد فاذا اضطر خروج البراز أخرجه دفعة واحدة ثم أنظر الى حرص الذكر حين تحمل الانثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ولا يدعها تستقر خارجا عن الوكر خشية ان تضع البيض فى غير الموضع المهيأ لوضعه أنظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها مادامت محتاجة الى الزق حتى اذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت اذا تعرضت له لنيل مااعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها ثم أنظر ما خلق الله تعالى فى الكوسر من شدة الطيران حتى لايسبق له من يطلبه ومن قوة المخلب وحدته فى المنقار والاظفار فكأن مخلبها مدية للقطع وكأن مخلب ارجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل مايحتاجه من قوتها أنظر الى طير الماء

لما جعل قوته فى الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور مايليق به في تحصيل قوته

باب في حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) اعلم وفقك الله وايانا ان الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانا عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها الى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة وجعل ذلك مجلدا اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتقنها لانها اريد منها القوة للعمل والحمل ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الانسان حاجته لانها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ولا وصل بها الى شيء من مآربه ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للانسان فلا تمتنع عليه اذا أكدها عند حاجته الى اكدادها في الطحن وحمل الاثقال عليها الى غير ذلك وقد علم الله ان بالناس حاجة الى أعمالها وهم لا يطيقون اعمالها ولا يقدرون عليها ولو كلف العباد القيام بأعمالها لاجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ولو كان ذلك مع اتعابه لابدانهم يضيق عليهم معايشهم فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة انظر في خلق اصناف من الحيوان وتهيئها لما فيه صلاح كل صنف منها فبنوا آدم لما قدروا ان يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب العلوم وسائر الفضائل ولا غني لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والاذهان والفكر وخلقت لهم الاكف ذوات الاصابع ليتمكنوا من القبض

على الاشياء ومحاولات الصناعات* وآكلات اللحم لما قدر ان يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وانياب* وآكلات النبات لما قدر ان تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها اظلاف كفتها خشونة الارض اذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كاخمص القدمين لتنطبق على الارض وتتهيأ للحمل والركوب. تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان كيف خلقت ذوات اسنان حداد وتراس شداد وافواه واسعة وأعينت بسلاح وأدوات تنال بذلك ماتطلبه فان ذلك كله صالح للصيد فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد اعطيت مالا تحتاج اليه لانها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت ماتحتاج اليه من السلاح الذي به تصطاد فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من اصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته انظر الى اولاد ذوات الاربع كيف تجدها تتبع الامهات مستقلة بنفسها لاتحتاج الى تربية وحمل كما تحتاج الآدميون اذلم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في احوال التربية والقوة عليها بالفكر والاكف والاصابع المهيأة لذلك ولغيره فلذلك اعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة وما كان منها ضعيفا لانهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الامهات عطف عليها فصارت توعى الطعام فى حواصلها ثم تمجه في افواه فراخها ولايزال كذلك حتي ينهض وتستقل فكل أعطى من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم. انظر الى قوائم الحيوان كيف يتنقل ازواجا لتتهيأ للمشى فلو كانت افرادا لم تصلح لذلك لان الماشي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على مالم ينقله منها

فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الاخرى وذو الاربع ينقل أثنتين
ويعتمدعلى أثنتين وذلك من خلاف لانه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه
ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض كالسرير ولو
كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على
اليسرى من مؤخره ويعتمد الآخريين من خلاف أيضا فتثبت على الارض
ولا تسقط اذا مشي لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد أماترى الحمار يذل
للحمولة والطحن والفرس مردعا منها والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى
وينقاد لصبي صغير والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه
ليستحرثه والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والاسنة في الحروب وقاية
لراكبها والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة
منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وربما أعجزت طالبها وكذلك جميع الحيوان
المسخر للانسان وما ذلك الا لانها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سببا
لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس وان أكدها في كثير من الاحوال
وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم
نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها ولا سيما اذا اشتدت حاجتها
في طلب قوتها ويشتد خلالها ألا ترى كيف اذا أحجمت عن الخلق وصارت
في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا
تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها الا ليلا فجعلها مع شدة قوتها وعظم
غذائها كالخائفة من الانس بل هي ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم
وضيقت عليهم في مساكنهم ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف
سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل
الى صاحبه ما يؤذيه ثم انه أعان صاحبه بقوة صوته حتى ينتبه من نومه فيدفع عن

نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الانسان في الحراسة والاصطياد ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمده بسلاح وهي الانياب والاظفار واللهث القوي ليذعر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي يحميها ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحا مثبتا على قوائم اربع لتمهيد الركوب والحمولة وجعل فرجها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها اذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها ألا ترى انه لايستطيع ان يأتيها كفاحا كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فاذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز الفحل حتى يتمكن من اتيانها فلو لم يخلق في الموضع المخلوق في الانعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الامر الذي به دوام التناسل وذلك من عظيم العبر ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الاظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره ولما كانت البهائم لا اذهان لها ولا أكف ولا أصابع تتهيأ للاعمال كفيت مؤنة مايضربها بان جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج الى استبدالها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي فانه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال مايقترحه وله في اشتغاله بذلك صلاح وفيه حكمة فانه خلق على قابلية لفعل الخير والشر وهو الى فعل الشر اميل الى فعل الخير فجعلت الاسباب التي يحصل بها ماهو محتاج اليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه فانه لو اعطى الكفاية في كل احواله اهلكه الاشر والبطر وكان من اعظم الحيوانات فساداً في الارض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة الى مافيه شقاوته ثم ان الآدمي مكرم يتخير من ضروب الملابس

ماشاء فيلبس منها ماشاء ويخلع منها ماشاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بمايشاء ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له بخلاف البهائم فانها غنية عن هذا كله . انظر فيما الهم الله البهائم والوحوش في البراري فانها تواري انفسها كما يوارى الناس موتاهم فما احس منها بالموت توارى بنفسه الى موضع يحتجب فيه حتى يموت والا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها فأنك لو طلبت منها شيأ لم تجده وليست قليلة فيخفى امرها لقلتها بل لو قال قائل اكثر من الانس لم يبعد لان الصحاري قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعل وابل وخنزير وذئاب وضروب من الهوام والحشرات واصناف من الطير وغير ذلك مما لا يحصى عدده وهذه الاصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة والذي اجرى الله به عادتها ان تكون في اماكنها فاذا احست بالموت أتت الى مواضع خفية فتموت فيها فانظر هذا الامر الذي الهمت له هذه الاصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي . تأمل الدواب كيف خلق اعينها شاخصة امامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطا ولا تتردى في حفرة واذا قربت من ذلك نفرت منه وابعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه اليس الذي جبلها على ذلك اراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها ثم انظر الى فمها مشقوقا الى اسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي ولو جعل كفم الانسان لم تستطع ان تتناول شيئاً من الارض واعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها فالهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح انظر ما كان من البهائم كيف يمز الماء في شربه مزاً وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما في شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكا

يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الانسان ثم انظر الى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر فمن منافعه انه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ومنها ان ما بين دبرها وطرق بطنها ابدا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضا على مؤخرها فاعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها فصار كأنه مدية في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها ثم انها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضا ثم ان الدابة أيضا اعينت بحركة مختصة وذلك ان الذباب اذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكا تطرد به الذباب وغيره عنها وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين ومن الحكمة فيه أيضا ان الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لانها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها ايضاً بالحمل لبدنها والتصرف فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة واعينت بسرعة حركته حتى لا يطول المها بما يعرض لها ومن الحكمة فيه ان البهيمة اذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أو غيره فلا تجد شيئاً اهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ومن ذلك اذا خيف على حملها ان ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب او ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها الى غير ذلك من مصالح لا يعلمها الا الحكيم العليم انظر الى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فانه يقوم مقام اليد في تناول العلف وايصاله الى فمه فلو لا ذلك مااستطاع ان يتناول شيئاً في الارض اذ لم تجعل له عنق يمده كسائر الانعام فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير. انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء الى

فمه ومنخراً يتنفس منه وآلة يحمل بهاما أراد على ظهره او يناول من هو راكبه
عليه انظر الى خلق الزرافة لما كان منشأها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلا
لتدرك قوتها من تلك الاشجار تأمل فى خلق الثعلب فانه اذا حفر له بيتاً فى
الارض جعل له فوهتين احداهما ينصرف منها والاخرى يهرب منها ان
طلب ويرفق مواضع في الارض في بيته فان طلب من المواضع المفتوحة ضرب
برأسه فى المواضع التى رفقها فخرج من خير المنافذ وهي المواضع التي تحتها
انظر ماخلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه وجملة القول فى الحيوان
ان الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله
خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات وماجعل منه للحمل جعله هادئ
الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلا على صور يتهيأ منه الحمل وماكان منه ذا
غضب وشر الا انه قابل للتنظيم اذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد
بصيده وحراسته واعين بآلات قد تقدم ذكرها ومن جملة ذلك الفيل فانه
ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب
ومنها ماله غضب وشر الا انه متأنس بالانسان لمنفعته كالهرة ومن الطير ماللناس
به انتفاع لما فيه من الالفة والتأنس فمن ذلك الحمام يألف موضعه فشغل بسببه
الاخبار بسرعة اذا دعت حاجة الى ذلك وجعله الله سبحانه كثير النسل فيكون
منه طعام ينتفع به ومن ذلك البازى فان طباعه تنتقل الى التأنس وان كان في
طبعه مبايناً الا انه لما علم الله انه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج
عن عادته وبقى يعمل مايوافق اصحابه وقت الصيد وما خفي من الحكم فى خلق
الله تعالى اكثر مما علم

(باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك)

قال الله سبحانه وتعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه

إلا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون) انظر الى النمل وما ألهمت له في احتشادها في جمع قوتها وتعاونهم على ذلك وأعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حرا وبرد والهمت في تقلب ذلك من الحزم مالم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك اذا عجز بعضها عن حمل ماحمله أوجهد به اعانه آخر فيه فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم الا بالتعاون ثم انها الهمت حفر بيوت في الارض تبتدئ في ذلك بأخراج ترابها وتقصد الى الحب الذي منه قوتها فتقسده خشية أن ينبت بنداوة الارض فمن خلق هـذا في جبلتها الا الرحمن الرحيم ثم اذا أصاب الحب بلل اخرجته فنشرته حتى يجف ثم انها لاتتخـذ البيوت الا فيما علا من الارض خوفا من السيل ان يغرقها ثم انظار الى النحل وما الهمت اليه من العجائب والحكم فان الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها فان ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل احدهما الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق لانهما اذا كانا اميرين وسلك كل واحد منهما فجاً افترق النحل خلفهما ثم انها الهمت ان ترعى رطوبات من على الازهار فيستحيل في اجوافها عسلا فعلم من هذا التسخير مافيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما اخبر سبحانه وتعالى وفيه غذاء وملاذ للعباد وفيه من اقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم فهي مثل مايفضل من اللبن الذي خلق لمصالح اولاد البهائم واقواتها ومافضل من ذلك ففيـه من البركة والـكثرة ماينتفع به الناس ثم انظر ماتحمله النحل من الشمع في ارجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه فلاتكاد تجد وعاء احفظ للعسل من الشمع فى الاجناح فانظر في هـذه الذبابة هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسـل او عنـدها من المعرفـة بحيث رتبت حفظ العسل

العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ثم انظر لخروجها نهارا لرعيها ورجوعها عشية الى اماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه انظر الى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فان الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه وشركا لصيدها فهو مخلوق من جسدها وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف الى تقويم جسدها والى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدا مثل الشرك وفي ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك فاذا أحست ان شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت اليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت الى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات وان كانت مستغنية في ذلك الوقت شكاته وتركته الى وقت حاجتها فانظر ماجعل الله فيها من الاسباب لحصول قوتها فبلغت في ذلك مايبلغه الانسان بالفكرة والحيلة كل ذلك اصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم ان الله هو المدبر لهذا ثم انظر من العجائب دود القز وما خلق فيه من الاشياء التي يحير منها وتذكر الله عند رؤيتها فان هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه فان هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير وذلك ان صورة البزر تحضن حتى اذا حمى عاد دوداً كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيغتذي منه فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث الى عزل نفسه جوز الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير ويصير هو جسما ميتا لا حياة فيه ثم انظر فان الباري

سبحانه لما أرادحفظ هذا الجنس ببقاءنسله فعند ماينتهي من غزل الحرير ويغني ذلك الجسم يقلبه الله الى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط اوغيره وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الانثى فيعلو الذكر منه على ظهر الانثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن اولا ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع اذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر فانظر من الهمها الرعي من ذلك الورق حتى يرتب منه ومن ألهمها الى غزل أجسادها حريرا حتى يغنى فيما حرثته ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة تمكن فيها أجتماع الذكر والانثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الاولى لم يأت منها تناسل ولاهذا الاجتماع ثم انظر مايسره الباري سبحانه من عمل ماغزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر هذا التسخير العجيب فى هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الاموات واعادة العظام الرفات سبحانه لا اله الا هو العلي العظيم . ثم انظر الذبابة وما اعينت به في نيل قوتها فانها خلقت بأجنحة تسرع بها الى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضربها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين فان أصابها غثار مسحته بالرجلين الذين تليهما وذلك لرقة أجنحتها ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب لانهما بارزتان عن رأسهما وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائما وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم تأمل كثيرا من الحيوان الصغير عند ماتلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به ويبقى على

ذلك ساعة ثم يتحرك ويمشي وهل ذلك الا لأن مايصطاد انما يصطاد اذا دلت هيئته على عدم حياته فاذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة؟ تأمل العقاب عندما يصطاد السحلفاً يجدها كانها حجر ولا يجد فيها موضعاً لا كله فيصعد بها في مخالبه حتى اذا أبعد من الارض اعتدل بها على جبل أو حجارة وارسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها فانظر كيف الهم الطريق فى نيل قوته من غير عقل ولا روية انظر الى الغراب لما كان مكروها خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده والهم الاحتيال في اخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالانثى خشية ان تشغله عن شدة حذره ولذلك قل ان يرى مجتمعاً مع انثى فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن ارواث الدواب وقت تبرزها واذا وجد شيئاً من قوته واكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر فمن خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب الا الله لأنه لا عقل له ولا روية أنظر الى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت في امر قوتها بقوة بصرها فانها ترى ما تقتات به في الارض مع علوها في الجو فتنحط نحوه بسرعة والهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه واعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه فسبحان المدبر الحكيم انظر الى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير فانه خلق بطيئاً في نهضته وكان لابد له من قوته نخلق على صورة عجيبة فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد اليه ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ثم اعطى مع السكون وهو انه يتشكل في لون

الشجر التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم اذا قرب منه مايصطاده من ذباب او غيره اخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به مابعد عنه بثلاثة اشبار او نحوه فقلم سخر له يصطاد به على هذه المسافة واذا راي مايريعه ويخيفه شكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه فانظر هذه التي خلقت فيه لاجل قلة نهضته فاعين بها انظر الى الحيوان الذي يسمي سبع الذباب وما اعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به فانك تجده يحس بالذباب قد وقع قريباً منه فيركد مليا حتي انه ميت أو جماد لاحراك به فاذا أحس ان الذباب قد اطمأن دب دبيباً رقيقا حتى لاينفره حتى اذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه فاذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية ان يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضا عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيغتذي منه بما يلائمه منه فانظر الى هذه الحيلة من فعله أو هي مخلوقة من اجل رزقه فسبحان الباري الحكيم. أنظر الى الذر والبعوض الذي أوهن الله قوتها واصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها واخراج فضلته وانظر هل يمكن ان يعيش من غير قوت وهل يمكن ان يكون القوت في غير محل واحد واخراجه فضلته من غير منفذ ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضاها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة فهي بعوضة صغرت في النظر ومع هذا فلو اهل السموات والارض من الملائكة فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق اجمعين ارادوا ان يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه اجزآها وحسن اعتدال صورتها

في اعضائها لما قدروا على ذلك الا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت ان مابين الجلد واللحم دماً وهو الذي هو غذاؤها ولولا معرفتها به لم تدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتها التي قصدت بها ان تطير الى المواضع الذي الهمها ربها ان فيه غذاءها وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت ان نجاتها في الفرار اذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ولو جزؤها ما ازدادوا في امرها الا عمى وبعدا عن المعرفة فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوا كبيرا

﴿ باب في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم ﴾

قال الله تعالى (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والانهار من الحيوان المختلف الصور والاشكال وما فيه من الآيات البينات فانه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لانه لا يتمشى وهو منغمس في لجة الماء وخلقت له مكان القوائم اجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعتمد اليه وما يؤذيه ومالم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهى القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه وانظر كيف أعطى في قعر البحر مايناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره ولما علم الله سبحانه ان بعضه غذاء لبعض كثره وجعل أكثر اصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالانثى دون الذكر كحيوان البر بل جعل الذكر والانثى

جنساً واحداً يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى وذلك من كل بزرة حوتا من الجنس ومن جنس آخر يخلق في الانهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها اعداداً لا تحصر دفعة واحدة ومنه صنف يتوالد بالذكر والانثى وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاء والتمساح وما شاكلهما فيتولد منهما بيض فاذا انقفص البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس ولما علم الله سبحانه وتعالى ان السمك في البحر لا يمكن ان يحضن ما يخرج من بزره التي اودع في بزر جميعه عند ما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الاعضاء عند القاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر الى احد في كمال خلقه فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلاً بنفسه مستغنياً عن ذلك كله ثم ان الله سبحانه كثره لان منه قوت جنسه وقوتاً لبني آدم والطير فلذلك كان كثيراً ثم انظر الى سرعة حركته وان لم يكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر الى حركة ذنبه وانقسامه وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها وخلقت ارياشه الواحا من جانبيه ليعتدل بهما ايضاً في سيره فهو بمنزلة المركب وانظر الى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها في كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو فهو كانشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته ويخرج من اضلاع الى منزلتي البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج اليه من الامر وبه قوامه وانظر الى ما كان منه كاسراً كيف اعين على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الاسنان حتى انه لكثرة اسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ وانظر الى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة مثل اصناف الصدف والحلزون كيف حفظ بان خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب

كالرخام ليصونه ويحفظه وجعل له بيتاً وسكناً وجعل ما يوالي جسده ناعماً انعم ما يكون وربما ضر ببيت بعض اصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة واصناف منه خلقت في محارّ مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطى وجعل لها اسباباً تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع اخراجها الا بغاية الجهد وجعل لها قوتاً من رطوبات الجبل تتأتى حياتها بذلك واما الحلزون الذي بيته كأنه كوكب فانه يخرج رأسه يرعى فاذا أحس بما يؤذيه ادخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب اثره بالجملة فانظر هذا اللطف وان الله لم يهمل شيئاً واعلم ان الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال فتبارك الذي اعطي كل شيء خلقه ثم هدى وانظر الى انواع من السمك يرعي قرب البر الصغير منها والجافي في الاعماق وقد خلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن في الضرع فاذا احس بما يؤذيه اخرج من جوفه ما يمكن موضعه ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها الا خالقها انظر الى نوع آخر من السمك اعين باجنحة مثل اجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الانواع من موضع الى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك انه من طيور البر انظر الى نوع آخر من انواع السمك ضعيف وكثيراً ما يكون في الانهار وجعل الله فيه خاصية تصونه اذا اقتربت منه يد من يأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن اخذه بذلك السبب فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيه يشير الى امر عظيم

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

(قال الله تعالى امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها إإله مع الله بل هم قوم يعدلون). انظر وفقك الله وسددك الى ماعلى وجه الارض من النبات وما في نظره من النعم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لايعدلها شيء من مناظر الارض ثم انظر الى جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطامع والروائح والمآرب التي لاتحصى وخلق فيه الحب والنوى مخلوقا لحفظ انواع النبات وجعل الثمار للغذاء والتفكه والاتيان منها للعلف والرعي والحطب للوقود والاخشاب للعمارة وانشاء السفن ولغير ذلك من الاعمال التي يطول تعدادها والورق والازهار والاصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح لاتحصى أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الارض ولم يكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ماكان يحصل من الخلل في عدم الاخشاب والحطب والاتيان وسائر المنافع وان وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها ثم انظر ماجعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك واقل والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادخر للامور المهمة والزراعات وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة فاعطى أهلها من البذر مايبذرونه وفضلة يتقوتون بها الى ادراك زرعهم فهذه هي الحكمة التي اعم الله بها البلاد واصلح بها العباد وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ولولا نموه وبقاء مايخلفه لكان ما اصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف. تأمل في هذه الحبوب فانها تخرج في اوعية تشبه الخرائط

لتصونها وتحفظها الى ان تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين فاما البزر وما اشبهه من الحبوب فانه يخرج من قشور صلبة على رؤسها امثال الاسنة ليمنع من الطير فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها وان كان يناله منها قوته الا ان حاجة الآدمي اشد واولى. تأمل الحكمة في خلق الشجر واصناف النبات فانها لما كانت محتاجة الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل اليها غذاءها جعلت اصولها مركوزة في الارض لتجذب الماء من الارض فتغتذى بها اصولها وما علا منها من الاغصان والاوراق والثمار فصارت الارض كالام المربية لها وصارت اصولها وعروقها كالافواه الملتقمة لها وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع اصناف الحيوان من امهاتها الم تر الى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالاطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل فهكذا امر النبات كله له عروق منتشرة في الارض ممتدة الى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الاشجار العالية لا سيما فى الرياح العاصفة فانظر الى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس فيه اعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته وتأمل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً لو كان مما يصنع بايدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة الا في مدة طويلة وكان يحتاج فيه الى آلات وطول علاج فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الارض بغير آلة ولا حركة الا قدرة الباري وارادته وحكمه ، ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق باسره لتسقيه وتوصل اليه المادة وهي بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الانسان لتوصل الغذاء الى كل عضو منه واما ما غلظ من العروق فانها تمسك الورق بصلابتها وقوتها

لئلا ينتهك ويتمزق ثم انظر الي العجم والنوى والعلة فيه فانه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه اذا عدم ما يغرس او عاقه سبب فصار ذلك كالشئ النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة اليه فان حدث على الذي في بعض المواضع من حادث وجد منه في موضع آخر ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ولولاه لسرحت وسرح الفساد اليها قبل ادراكها وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح ثم انظر الى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التي تخرج عليها وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد ثم تأمل خلق الحب والنوى وما اودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته الا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت في ظاهره قشرة حتي انه بسبب ذلك ان سقط في تراب او غيره لا يفسد سريعاً واذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه وعندما يوضع في الارض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهوى وكلما ازداد غصناً ازداد عرقا تتقوى به اصل الشجرة وينصرف الغذاء منه الى الغصن فهي كذلك اذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهوى والانكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء في جذرها الي اعالي الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الاوراق لاتصال الغذاء الى جوانب الورق مايليق بغذائها وللثمار غذاء صالح لها وللاقماع واللحا والازهار غذاء صالح لكل من ذلك مايليق به ويصلحه فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها وزائحتها والوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها ثم انظر كيف جعل الله سبحانه

خروج الاوراق سابقاً لخروج الثمار لان الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الاوراق ساترة لها وصار ما بينها من الفرج لدخول اجزاء من الشمس والهواء لاغنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المتن والعفن وغير ذلك من الفساد ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الاشجار والثمار والازهار وجعلها مختلفة الالوان والاشكال والطعوم والروائح فاشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير وألوانها ما بين احمر وابيض واصفر واخضر ثم كل لون منها مختلف الى شديد وصاف ومتوسط وطعومها ما بين حلو وحامض ومز وتفه ومر وروائحها الى عطرات لذيذات مختلفات وقد اوضح الكتاب العزيز من ذلك ماذكرناه بما يشرح الصدور ويكشف للمتأمل منه كل مستور فانظر ما اودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر اليها فانها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها واودع الله سبحانه فيها منافع لاتحصى مختلفة التأثير فمنها ماتقوي به القلوب ومنها اغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصالها وقت نضارتها انظر وتأمل ما في قوله عز وجل (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) فأخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتاً صافياً لذيذاً نافعاً كما اخرج اللبن من بين فرث ودم ومن أخرج من النحل شراباً عسلاً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ولو جمعت هذه الاشياء في مستقر لكانت مثل الانهار وكل ذلك لمنافع العباد فانظر ما فيه من العبرة لذوي الافكار ثم انظر الي الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للاعلى من الشجرة وكيف قسم الباري في غذاء النخلة فقسم للجذر ما يصلح لها وللجريد وما فيه من السعف ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها وكذلك الليف الحافظ للاصول

مع الثمرة وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة فى اول امرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة فى غلاف متقن يحفظها مما يفسدها و يغيرها حتى اذا قويت صلحت ان تبرز للشمس والهواء فانشق عنها غلافها على التدريج وهو الذي كان حافظاً لها فيصير يفترق شيئاً بعد شئ على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد ثم تراها فى النضج والطيب الي بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها وتصرف في المآرب التي هيئت لها واعتبر ذلك في جميع الاشجار فانك ترى فيها من اسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذى فهم ولب فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير فانك ترى فيها شحما مركوماً في نواصيها غليظ الاسفل رقيق الاعلا كأمثال التلال في تلوينه او البناء الذي وسع اسفله للاستقرار ورق اعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضد بالايدي بل تعجز الايدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور وتراه مقسوما اقساما وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة اعجب نسج والطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ومن حكمة هذه الصنعة ان حبها لو كان حشوها منه صرفا بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ألا ترى اصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل الى الحب غذاءها والى حبة حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لاتكدر على الاكل ولا تعرف بها ثم انظر مايصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه على الاضطراب وتحفظه ثم حفظ الجميع وغشاءه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات فان هذا

النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو مابين غـذاء ودواء وتدعو الحاجة اليه في غير زمانه الذي يجني فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك انظر الى عود الرمانة الذي هي متعلقة به كيف خلق مثبتا متقنا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج اليها وهي من الثمرة المختصة بالانسان دون غيره من الحيوان انظر الى النبات الممتد على وجه الارض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير فانه لما كان عود هذا النبات رقيقاً ريان ذا احتياج الى الماء لا ينبت الا به جعل ماينبت به منبسطاً على وجـه الارض فلو كان منتصبا قائما كغيره من الشجر لمـا استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها فـكانت تسقط قبـل بلوغها وبلوغ غاياتها فهي تمتد على وجـه الارض لبلوغ الغاية وتحمل الارض عودها واصل الشجرة والسقي يمـدها وانظر هـذه الاصناف كيف لا تخلق الا في الزمن الصالح لها ولمن تناولهـا فهي له معونة عند الحاجة اليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولاضرت بأكثر من يأكلها ثم انظر الى النخل لمـا كانت الانثى منه تحتاج الى التلقيح خلق فيها الذكر الذي تحتاج اليه لذلك حتى صار الذكر فى النخل كأنه الذكر فى الحيوان وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع ثم انظر مافي النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد يفور في البدن فيستخرج الفضـلات الغليظة وآخر لاخراج المـرة السوداء وآخر للبلغم وآخر للصفراء وآخر لتصريف الريح وآخر لشد البطن في الطبيعة وآخر للاسهال وآخر للقيء وآخر لروائحه وآخر للمرضي والضعفاء وكل ذلك من المـاء فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير

باب ماتستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم (تسبح له السموات السـبع والارض ومن فيهن وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) وقال تعالى

تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض وقال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) اعلم وفقنا الله واياك ان جميع ماتقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته فانك اذا نظرت الى ماهو أدنى اليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ماسبق التنبيه عليه وأعظم منه ثم انك اذا نظرت الى مستقرك وهي الارض واجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما احيط بها من بحار زاخرات وما جرى فيها من الانهار وماانبث فيها من أصناف النباتات والاشجار وما بث فيها من الدواب الى غير ذلك مما يعتبر به أولوالالباب ثم اذا نظرت الى سعتها وبعد اكنافها وعلمت عجز الخلائق عن الاحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ثم نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم الى السماء وان الارض وما فيها بالنسبة الى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الارض مائة ونيفا وستين جزءا وان من الكواكب مايزيد عن الارض مائة مرة ثم انك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها فتفكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدقة عينك مع صغرها وبهذا يعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتفاعه ولاجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأي العين ثم انظر الى عظم حركتها وانت لاتحس بها ولا تدركها لبعدها ثم انك لاتشك ان الفلك يسير في لحظة قدر كوكب فيكون سيره في لحظة قدر الارض مائة مرة واكثر من ذلك

وانت غافل عن ذلك ثم فكر فى عظم قدر هذه الاشياء واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع الكتاب العزيز فقال عز وجل (والسماء ذات البروج) (والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق النجم الثاقب) وقال (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) الى غير ذلك من الآى ثم ترق بنظرك الى ماحواه العالم العلوى من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم وما اخبر به جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن اسرافيل عليه السلام يقول جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل وان العرش لعلى كاهله وان رجليه لفي تخوم الارض السفلى واعظم من هذا كله قوله عز وجل (وسع كرسيه السموات والارض) فما ظنك بمخلوق وسع هذا الامر العظيم فارفع نظرك الى بارئ هذا العظيم واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم وعلى جلاله وقدرته وعلمه ونفوذ مشيئته واتقان حكمته في بريته وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته فمن نظر فى ملكوت السموات والارض ونظر فى ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لامره وليس للمتفكرين الى غير ذلك سبيل وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق اذداد معرفة ويقينا واذعاناً لبارئه وتعظيماً ثم الخلق في ذلك متفاوتون فكل مثال من ذلك على حسب ماوهبه له من نور العقل ونور الهداية وأعظم شيء موصل الى هذه الفوائد المشار اليها تلاوة الكتاب العزيز وتفهم ماورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله ثم انظر وتأمل مانشير اليه فانك علمت على الجملة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اسري به الى ان بلغ المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى واطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والاولي ودني من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدني فما ظنك

بعلم من شرف بهذا المنى ثم أمر بأن يقول (وقل رب زدني علما) وعلمك بمعرفته ومن عليك بنور هدايته واستعملنا واياك بطاعته وجعلنا بكرمه اجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده انه ولي ذلك

تم كتاب الحكمة في مخلوقات الله عز وجل سبحانه في نهار
الاثنين عاشر ذي الحجة الحرام يوم عيد الله الاكبر
سنة ٩٢١ على يد العبد الفقير الى الله تعالى عبد الله ابن
أبي عبد الله الطرابلسي بن المفتقر ان يغفر الله له
ولوالديه ولمشايخه ولاخوانه ولمحبيه
ولجميع المسلمين آمين والحمد
لله رب العالمين وصلى
الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه
وسلم
م

